# سورة الهمزة

## مكية وهي عشر آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند المفسرين (فتح البيان). والمستشرقون أيضًا قد اعتبروها من أوائل السور. (تفسير القرآن لـــ"ويري")

لقد تحدثتْ هذه السورة عن أحوال المسلمين في عهد الرسول ﷺ، حيث أخبرت أن الكفار يؤذونهم مغرورين بأموالهم. علمًا أن الهمز واللمز يعني العيب والاغتياب، والإيذاء، وكلا المعنيين ينطبق هنا. ثم أخبر الله في هذه السورة أن أهل مكة يتفاخرون اليوم بمالهم، ويحتقرون المسلمين ويعيبونهم بشتى العيوب ويغتابونهم ويؤذونهم، ولكنهم سيُلقون في عذاب يقضّ عليهم المضاجع، ويُدمَّرون في نهاية المطاف.

**الترتيب والترابط:**

لقد ذكرتُ مِن قبل أن الحديث منذ السور الماضية العديدة هو كالآتي: تتحدث سورة منها عن الزمن الأول للإسلام، وأخرى عن الزمن الأخير له. فقد تحدثت السورة السابقة "العصر" في غالبها عن الزمن الأخير للإسلام، أما هذه السورة فتتحدث عن الزمن الأول للإسلام. الواقع أن معظم هذه السور الصغار المدونة في آخر المصحف بترتيب محكم فريد قد نزلت في بداية الإسلام –ما عدا سورة أو سورتين نزلتا بعد الهجرة– وقد تحدثتْ عن بعثتَيْ النبي ﷺ بتعاقب، فإحداها تتحدث عن البعثة الأولى والأخرى عن البعثة الثانية، بحيث ينتفع الأولون من السور التي تتحدث عن البعثة الثانية، وينتفع الآخرون أيضًا من السور التي تتحدث عن البعثة الأولى. وهذه معجزة قرآنية عظيمة، حيث تنبأ القرآن عن رقي الإسلام ثم عن انحطاطه ثم عن ازدهاره ثانية، وذلك في زمن لم يكن عدد المسلمين فيه إلا بضعة

أفراد. الحق أنه لا نظير لعلمِ الغيب العظيم هذا في أي كتاب آخر. فكأنما الصفة الإلهية المتعلقة بالإظهار على الغيب قد تجلّت في القرآن الكريم بأروع وأكمل صورها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿٢﴾

**شرح الكلمات:**

**وَيْل:** الويل: كلمةُ عذاب (الأقرب).. أي أن الذي وردت هذه الكلمة بحقه سيصاب في ماله أو عزه أو راحته، وكأنها تشير إلى ضياع ما يعتبره مدعاةً لخيره وعزه وراحته. فقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ يعني أن العذاب على وشك أن يحل بكل هُمَزةٍ لُمَزةٍ، أو أن هذا سيفقد كل ما يسبب له العزّ والراحة. علمًا أن كلمة الويل لا تُستعمل في حق أحد إلا إذا استحق العذاب والهلاك، لبيان أنه لا يعاقَب صدفةً أو ظلما، لأن أحدا إذا تعرّضَ للأذى صدفةً فلا تُستعمل بحقه كلمة الويل.

إنّ الهمز واللمز بمعنى واحد؛ إذ يوجد في الكلمتين ميم وزاي؛ ومن قواعد العربية أن كل حرف يفيد معنى معيَّنًا، فإذا كان بين حروف كلمتين اشتراكٌ لفظي فلا بد أن يكون بينهما اشتراك معنوي أيضا. والهمز واللمز متشابهتان معنًى، والفرق الوحيد أن إحداها تبدأ بالهاء والثانية باللام، فقد ورد في القاموس:

هَمَزه هَمْزًا: غمَزه؛ نخَسه؛ دفَعه؛ ضرَبه؛ عضَّه؛ اغتابه؛ كسَره. وهَمَز الشيطانُ الإنسانَ: هَمَس في قلبه وَسْواسًا. وهَمَز به الأرضَ: صرَعه. وهَمَز الفرسَ: نخَسه بالمِهْماز لِيعْدُوَ. وهمزَ رأسَه: عصَره. (الأقرب)

لَمَزه يلمِز لَمْزًا: عابَه؛ أشارَ إليه بعينه ونحوِها مع كلام خفيّ؛ دفَعه؛ ضرَبه. (الأقرب)

فثبت أن هناك اشتراكا معنويا شديدا بين الهُمَزة واللُّمَزة، والفرق الوحيد أن الهَمْز يعني الاغتياب، أي ذِكْر عيبِ المرء في غيابه، أما اللمز فيعني ذِكْر عيبه بحضوره مع كلام خفيّ، كأن يشير الأصدقاء بعيونهم إذا جاء في مجلسهم شخص يزدرونه

ويحتقرونه، ويقولوا: ها قد تفضّلَ، ويقصدون بذلك أنه قد جاء ليُفسِد مجلسهم. وهناك معنى زائد آخر في الهمز وهو العصر.

**التفسير**: هناك اختلاف كبير حول هذه الآية بين المفسرين حتى بين الصحابة والتابعين أيضا، وذلك لكون الهُمَزة واللُمَزة متقاربتين في المعنى، فبعضهم قال أن هَمَزَه يعني عَابَه، ولَمَزَه يعني اغتابه، بينما قال الآخرون العكس، فلم يستطيعوا تحديد معنى اللمز والهمز هنا. وأكبر سببٍ لذلك هو أن القواميس دُوِّنت بعد زمن هؤلاء المفسرين بكثير. والمعروف أنه عندما تروج لغةٌ عِلمية في الدنيا فلا تكتمل قواميسها فورا، بل تُدوَّن بالتدريج، وعندها يتوصل الناس إلى فهم صحيح لمفردات اللغة بالاستعانة بالقواميس، ولذلك لا نجد أوائل المفسرين يحدّدون معاني مفردات القرآن الكريم كما حدّدها الذين أتوا فيما بعد؛ إذ توفرتْ لديهم قواميس لم تتوفر عند الأولين. فمثلاً عندنا قاموسان عظيمان "تاج العروس" و"لسان العرب"، وهما يحويان معلومات واسعة للُّغة، وتبيّن أدقَّ تفاصيلها وأسرارها. وقد دُوِّنَ "تاجُ العروس" قبل ثلاثة قرون، و"لسان العرب" قبل ستة أو سبعة قرون، أما الفترة الطويلة قبل ذلك فلم تكنْ فيها قواميس مدوّنة. ولا جرم أن من عظيم محاسن اللغة العربية أن قواميسها بلغت القمّةَ في فترة بسيطة، إلا أني أرى أنه لا يزال هناك مجال لتحسينها أكثر، لأن أئمة اللغة لم يقوموا ببحوث مستفيضة في بعض الأمور. ومع ذلك فإن الذخيرة العلمية التي حوتها هذه القواميس عظيمة جدا، حتى قال الكاتب الإنجليزي الشهير "لين بول" بكل حسرة مشيرًا إلى أحد القواميس العربية: ليت في لغتنا قاموسًا بمستوى قواميس اللغة العربية. ورغم اعترافه باكتمال القاموس العربي، فإني أرى أنه لا زال هناك مجال للمزيد من البحث والتحقيق لتحسين مستوى القواميس العربية نظرًا إلى حاجتنا إلى بحث لغوي دقيق لمفردات القرآن الكريم عند التفسير. هناك عيب بسيط في هذه القواميس، وهو أنهم أدخلوا في اللغة أقوال المفسرين، ولو أزلنا هذا العيب، وبيّنا الحكمة البلاغية للمفردات بطريق أوضح لاكتمل قاموس للعربية لا مثال له في أي لغة في العالم.

باختصار، مِن قواعد البلاغة أنه إذا استُعملت كلمتان متقاربتان في المعنى في العبارة ذاتها، فلا بد من تفسير الكلمة الثانية بالمعنى الزائد الذي ليس موجودا في الكلمة الأولى؛ إذ لا داعي لاستعمال كلمتين لبيان معنى واحد، بل تكفي واحدة. وبناء على هذه القاعدة يمكن تفسير الهُمَزة واللُمَزة بطريقتين، وهما:

أولاً: أن نفسّر الهَمْز بمعنى الضرب، لكونه أكثرَ استعمالا للضرب المادي، فمعناه الأساسي هو الكسر، بينما نفسر اللمز بمعنى عيب الآخرين.

ثانيًا: أن نفسّر الهمز بمعنى الاغتياب، واللمز عيب الآخرين.

وجعلتُ هذا الفرق بين معنى الهمز واللمز لأن الكلام الفصيح يتسم بالتدريج دائما، وهذا التدريج يكون إما من حيث بيان أنواع الشيء أو درجاته، فمثلاً إذا أراد الأديب أن يبين أنّ فلانا قادر على رفع حمل ثقيل، قال: إنه يمكن أن يحمل ٥٠ كغ، بل ١٠٠ أيضا، ولكن الشخص غير الفصيح سيقول: إن فلانا يمكن أن يحمل ١٠٠ كغ، بل ٥٠ أيضا، وكل من يسمعه يعرف أن كلامه ساقط عن مستوى الفصاحة والبلاغة، إذ قال أولاً إن فلانا من الناس يمكن أن يحمل ١٠٠ كغ، فلا حاجة لأن يقول بعدها أنه يمكن أن يحمل ٥٠ أيضا. لأن الـ٥٠ متضمَّنة في الـ ١٠٠. كذلك لا يقول عاقل أن فلانا يقدر على القيام بعمل عظيم وبسيط أيضا، أو أن فلانا قد حصل على الماجستير والبكالوريس أيضا، كلا بل يقول إن فلانا حصل على البكالوريوس بل الماجستير أيضا، أو إنه قادر على هذا العمل بل أكبر منه، أو إنه أديب، بل شاعر أيضا. أما إذا ذكر الأكبر ثم الأصغر سقط كلامه عن الفصاحة والبلاغة.

وبناءً على هذه القاعدة لو فسّرنا الهمز بمعنى الاغتياب، واللمز بمعنى عيب الآخرين، لكان صحيحا تماما، إذ يوجد في المعنيين التدريج الذي هو ميزة الكلام الفصيح. ذلك أن المغتاب يفتقر إلى الشجاعة ويكون فيه شيء من الجبن. لا شك أن المغتاب والعيّاب كلاهما آثم، ولكن الفرق أن المغتاب يعيب الآخر خلف ظهره، أما العيّاب فيكون أكثرَ شرًّا، فيعيب الآخرين وراء ظهورهم كما لا يتردد في نسبة العيب إليهم أمامهم، وهكذا نجد أولا: أن التدريج في الهمزة واللمزة كان من حيث

المعنى، فالهُمَزة: هو الذي يغتاب الآخر وراء ظهره، واللمزة: مَن لا يغتاب الآخرَ فقط، بل يسبه في وجهه أيضًا.

وثانيًا: يتدرج الكلام لبيان أنواع الشيء، ولا أعني أنواعه الظاهرة، إنما أنواعه بحسب علم النفس. فمثلاً ضربُ المرء غيرَه بيده أشدُّ من اعتراضه عليه بلسانه في الظاهر، ولكنا نشاهد أيضًا أن المرء يمكن أن يثور غضبًا ويضرب صاحبَه ويسبّه، أما إنكار الحق فهو أشدُّ عليه من ضرب الآخرين أو سبّهم. إن إنكار الحق أقلُّ وقعًا من الضرب والسبّ في الظاهر، ولكن الضرب أخفُّ من إنكار الحقّ من منظور علم النفس. فالوالدان مثلاً يضربان أولادهما، أو المعلم يضرب التلميذ، ولكنك لو سألتهم: أيهما أشدُّ وقعًا عندكم، ضربُكم الأولادَ أم تورُّطُهم في الكذب والاغتياب مثلاً؟ فلا بد أن يقولوا إن الضرب لا شيء إزاء تورُّطهم في المساوئ الأخلاقية.

فنظرًا إلى هذا التدريج النفسي سنفسِّر الهمز بمعنى الضرب واللمزَ بمعنى الاغتياب، أي أن هؤلاء الكفار لا يضربون المسلمين فحسب، بل ينكرون الحقائق الواضحة الجلية. بمعنى أنهم ينكرون كل ما يوجد في محمد ﷺ وأصحابه من محاسن، وفي الإسلام من مزايا، وفي تعاليم القرآن من جمال، فإذا بيّن لهم محمد وصحابته الحقائق الثابتة اعتبروهم كذابين، وإذا عدَلوا بين الناس سموهم ظالمين، وإذا سعوا لإرساء الأمن والسلام اتهموهم بالفساد في الأرض. فما من ميزة في المسلمين إلا وينكرها الكافرون، ولا شك أن هذا أشدُّ وأشقُّ من الضرب والأذى، لأن الضرب تعبير عن الغضب فقط، أما إنكار الحقّ وعيب الآخرين واحتقارهم وازدراؤهم فدليل على فقدان الأخلاق والروحانية، مما له تأثير عميق بعيد المدى. ولذلك قال الشاعر:

جراحات السِنانِ لها الْتيامُ ولا يلتامُ ما جَرَح اللسانُ

فالاغتياب والاحتقار والازدراء أشدُّ وقعًا من الضرب المادي.

إذن، فالهمز يشير إلى الضرب، واللمز يشير إلى الاحتقار والازدراء وإنكار الحقائق. فمع أن الضرب أشدّ في الظاهر، إلا أنه أخفُّ من إنكار الحقائق من الناحية النفسية. وهذه هي الحكمة في ورود الهمز قبل اللمز في قوله تعالى ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.

يظن البعض جهلاً منهم أن الله تعالى لم يقدّم ﴿همزة﴾ على ﴿لمزة﴾ لحكمةٍ من الحِكم. والحق أن هذا خطأ منهم إذ الواقع يتطلب تقديم الهمز على اللمز، وإلا سقط الكلام من مستوى البلاغة. إنه لمن كبرى مزايا القرآن الكريم أنه استعمل كل كلمة في محلها، وتغييرها من مكانها يؤدي إلى خلل كبير.

هذا، ومع أن الله تعالى يتحدث هنا عن أهل عصر النبي ﷺ، إلا أنه يمكننا أن نستنبط من هنا قاعدة عامة أيضًا، ذلك لأن من مزايا القرآن الكريم أنه يتحدث بأسلوب ينتفع به أهل كل عصر من دون أن يظن أحد أن الحديث لا يخصه، بل يخص أهل عصر مضى. فقد كتب البعض أن في ﴿همزة﴾ و﴿لمزة﴾ إشارة إلى المغيرة والعاص بن وائل والأخنس بن شريق (روح المعاني)، فكان هؤلاء يسيئون إلى الإسلام وأهله، فحذّرهم الله تعالى أنهم إذا لم يرتدعوا عن شرورهم فسوف يحل بهم العذاب.

لكني أرى أنه لا مبرّر لتحديد نطاق مضامين هذه السورة الواسعة. فأولاً: إذا كانت هذه السورة نزلت من أجل المغيرة أو العاص بن وائل والأخنس بن شريق، فكان يمكن أن يقول الله تعالى مثلا: "ويلٌ للمغيرة وويل للعاص وويل للأخنس بن شريق"، لكنه ﷻ يقول ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، ذلك أن الكلام إذا خُصِّصَ بأحد صار مفهومه ناقصا، فمثلا لو قيل: ويل لزيد، تجسَّسَ الجميع لمعرفة عيبه الذي قيل له هذا بسببه، ولكن لو قيل ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ قال الجميع هذا صحيح، فأي شك في أن الذي يغتاب الآخرين ويعيبهم وينكر الحق هو سيئ ويجب أن يُعاقَب.

وثانيا: إن القرآن الكريم هديٌ لأهل كل زمان، وقد جعله الله تعالى دستورا لحياة الناس إلى يوم القيامة، ولذلك لو قيل هنا: ويل لفلان، لما نفعنا اليوم هذا التعبير. فمثلا لو قيل: "ويل للعاص بن وائل أو للمغيرة أو للأخنس بن شريق" فماذا ينفعنا ذلك؟ فقد مات، ومات أولاده وأجياله بل صاروا مسلمين وقضوا أعمارهم في خدمة الإسلام. أما قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ فينفع كلَّ إنسان إلى يوم القيامة، فسيحاول ألا يكون من الهُمَزة اللُّمَزَة. فبما أن القرآن الكريم شريعة كاملة تحتوي على وسائلِ إصلاحِ أهل كل زمن، فاستعمل كلماتٍ تنفع الناس في كل عصر إلى يوم القيامة. ولكن الله تعالى لو سمى هنا بعض الأشخاص لانحصر نفع

كلامه في ذلك العصر فقط، وأصبح هذا الكلام قصة بالية بالنسبة إلينا، وقلنا نعم، كان هناك شخص اسمه العاص بن وائل أو المغيرة أو الأخنس بن شريق، وكان مصابًا بكذا وكذا من العيوب، ومررنا بهذه القصة القديمة بسرعة وقلنا إنها لا تهمّنا كثيرًا، أما في هذه الحالة فلا نستطيع قول ذلك، بل لا بد لكل واحد منا أن يقرأ هذه الآيات ويسعى ألا يكون من الهُمَزَة اللُّمَزَة حتى لا يجلب عليه غضب الله.

إذن، فسواء كانت هذه الآيات تتحدث عن المغيرة أو العاص أو الأخنس بن شريق، إلا أن الله تعالى لم يتناول هنا موضوعًا يخصّ شخصا واحدًا، وإنما تناول موضوعًا فلسفيًّا عامًا، إذ لو جعله الله تعالى موضوعا شخصيا لصار هذا الكلام متروكًا، ولكن كونه موضوعًا عاما فلسفيا، قد جعله نافعا في الماضي ولا يزال نافعا إلى اليوم وسيظل كذلك إلى يوم القيامة، فكل من هو مصاب بهذه العيوب فسوف يهتم بإصلاح نفسه حتى لا يجلب عليه سخط الله تعالى.

باختصار، قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ تحذير رباني لكل من يتكبر بِسَحق الآخرين أو يعيبهم، بأنه إذا لم يرتدع عن شروره فسوف ينـــزل عليه عذاب الله. وفي هذه الحالة سيعني اللمز: الكبر والغرور، لأن من دأب المتكبرين ضرب الآخرين وسحقهم إظهارًا لقوتهم، أما اللمز فيعني: عيب الآخرين.

ونظرًا إلى المعنى الثاني، سيعني قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ أن الذي لا يغتاب الآخرين وراء ظهورهم، بل يعيبهم في وجوههم ويجرح مشاعرهم غيرَ مكترث بكذبه، فسوف يحرم مما عنده من نِعَم وسوف يتأسف بحسرة.

فيما يتعلق بالغيبة، فيظن البعض أن ذِكر عيب الآخر في غيابه ليس غيبة، إنما الغيبة أن يعيبه في غيابه بما ليس فيه. الواقع أن هذا ظن خاطئ، إنما الغيبة ذِكرُ المرء عيب غيره في غيابه بقصد الإساءة إليه، أما إذا عابه في غيابه بما ليس فيه فهذا ليس بغيبة بل هو بهتان. ورد في الحديث أن شخصًا قال يا رسول الله، لا شك أن الغيبة أمر مكروه، ولكن هل يجوز أن يذكر المرء صاحبه في غيابه بما فيه من عيب؟ فقال الرسول ﷺ: الغيبةُ ذِكرُك أخاك في غيابه بما يكره، أما إذا ذكرتَه بما ليس فيه فهو بهتان. (مسلم، كتاب البر والصلة والآداب)

والحكمة في نهي الإسلام عن الغيبة أن الإنسان أحيانًا يرى في الآخر رأيًا وهو يظن أنه مصيب فيما يرى، مع أنه يكون مخطئًا في رأيه في الواقع. فلقد جرَّبنا مرارًا أن المرء يرى في صاحبه رأيًا قطعيًّا، موقنًا أنه مصيب فيه، مع أنه يكون مخطئًا في الحقيقة، ولو كان صاحبه هذا أمامه وذَكَر الأمر له لبرّأ ساحته مما ظنّه فيه، وقال: لقد أخطأتَ الفهم، فليس الأمر كما ترى. فحتى ولو كان المرء مصيبا فيما يذكره في غياب أخيه مما ينال من عزه وعلمه ودرجته، فهو آثم بحسب القرآن والحديث إذ لم يتح لأخيه فرصة تبرئة ساحته مما نسب إليه.

لقد ذكرتُ من قبل أن هذه السورة تتحدث عن زمن الرسول ﷺ، حيث تبيّن أن الكفار يظلمون المسلمين ويؤذونهم ويضربونهم ويصبّون عليهم أنواع الاضطهاد، ويقومون ضدهم بدعاية زائفة.. بتعبير آخر إنهم لا يعادون المسلمين فحسب، بل يسعون لأن يعاديهم الآخرون أيضا، إذ لا يذكر المرء عيب غيره للآخرين إلا لإثارتهم ضده -فقوله تعالى ﴿هُمَزَةٍ﴾ إشارة إلى إيذائهم المسلمين وصَبِّهم أنواعَ الاضطهاد عليهم، أما قوله تعالى ﴿لمزة﴾ فيعني أنهم يسعون جاهدين ليعادي الناسُ المسلمين- فالله تعالى يحذِّر أصحابَ هذه الأعمال المخجلة أن يتذكروا أن كل أولئك الذين يؤذون محمدا وأصحابه ويثيرون الناس ضدهم، سيحل بهم من عند الله تعالى عذاب يقض عليهم المضاجع ويخيّب آمالهم كلية.

## ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾

**شرح الكلمات:**

**عدّدَه:** عدَّد المالَ: جعَله عُدّةً للدهر. (الأقرب)

اعلمْ أنّ ما يدّخره المرءُ لحاجاته من زواج أو مرض وما إلى ذلك فيسمى عدةً، فالمراد من قوله: جعَله عُدّةً للدهر، أي اعتبر ماله وسيلةً تسدّ حاجاته وتحميه من نوائب الدهر.

ومن معاني عدّد: عَدَّ وأحصى. (الأقرب)

اعلمْ أنّ العَدَّ يعني إحصاء الأشياء المتعددة القابلة للعدّ، كقولهم: عَدَّ الدراهم، أما عدّد المال فيعني الاحتفاظ به للحوائج، لا عدّه وأحصاه. أما إذا اعتبرنا المال شيئًا قابلاً للعدّ، فعندها يمكن أن يعني القول عدّد ماله أنه عدّه وأحصاه، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ يعني أن هذا طمّاع يجمع المال من ناحية، ومن ناحية لا يبرح يعدّه ويحصيه ليعرف كم صار عنده من مال.

وعدّد الميتَ: عَدَّ مناقبه. (الأقرب)

فحيث إن الأخلاق والصفات أنواع، فيقال عدّدها، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ يعني أنه يعدّد المال ويذكر محاسنه قائلا: إذا أمسك المرء ماله و لم ينفقه عند الحاجة لنَفَعَه كثيرًا.

وقد قرأ البعضُ: عدَده بالتخفيف، ولكن القراءة المتواترة والمشهورة: عدّده. (الرازي)

**التفسير**: كان ينبغي بحسب التعبير العام أن يقال: جمَع المال، ولكن الله قال هنا: جمَع مالاً، ما الحكمة في ذلك؟

اعلمْ أن التنوين يفيد معاني عديدة منها: التحقير، التقبيح، والتعظيم، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ سيعني أولاً: أنه جمع مالاً قليلاً ومع ذلك يتفاخر به، وليس المراد أن ما جمعه قليل، بل المراد أن مال الدنيا متاع قليل حقير فانٍ ولا يساوي شيئا مقابل الدين وإنْ كان قناطير مقنطرة، وذلك كما صرح القرآن الكريم ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ ذلك أن الإنسان لو ملك الأرض وما فيها فلا بد له من الموت بعد ٤٠ أو ٥٠ سنة. ثم إن متاع الحياة الدنيا قليل من حيث إن الإنسان سوف يرتحل من هذه الدنيا إلى الآخرة، فإذا لم يدّخر شيئا للآخرة فلن تنفعه أموال الدنيا هناك شيئًا. وإذا كان المرء قد ادّخر للآخرة ما ينفعه هناك فأيضا لا يساوي أمامه متاعُ الحياة الدنيا شيئا. فمتاع الحياة الدنيا قليل من كل منظور. باختصار، إن أحد معاني قوله تعالى ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ هو أنه جمع مالاً لا قيمة له، ومع ذلك يتفاخر بأنه أصبح ثريًا.

ونظرًا إلى معنى التقبيح، ستعني هذه الآية أنه جمع مالاً حرامًا خبيثًا، مع أن العاقل يرمي الشيء الخبيث بدلاً من أن يأخذه إلى بيته، فمثلاً لو وجد عملة زائفة فلا يضعها في جيبه، أو لو وجد شيئًا ملوَّثًا بالنجاسة فلا يُحضِره إلى بيته. أما هؤلاء القوم فيحتفظون بالمال النجس الذي جمعوه بخلاف مشيئة الله تعالى، مع أن الواجب أن يرموه فورًا، ولا يحتفظوا به لحظة.

أما نظرًا إلى معنى التعظيم، فالمعنى أنه جمع مالاً كثيرا. لا شك أن الملايين من المال متاع حقير عند الله تعالى، ولكنه كثير عند الإنسان. والواقع أن أحدًا إذا جمع ألف روبية اعتبر نفسه ثريًا، مع أنه لا قيمة لها. فقد قال المفسرون –الذين يرون أن هذه الآيات تتحدث عن كفار أهل مكة– في قوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ أن الأخنس بن شريق كان يملك ١٥ ألف درهم وكان يتفاخر بها على الآخرين (البحر المحيط). مع أن هذا المبلغ يساوي خمسة آلاف روبية بحسب قيمتها في هذه الأيام، وهذا لا يساوي شيئا في العصر الحاضر، فلو قيل مثلاً إن فلانا صار ثريًا إذ يملك خمسة آلاف روبية لضحك الجميع باعتباره قولاً يدل على الغباء. لكن هذا المال كان كثيرًا بالنسبة إلى العرب، فمن اجتمع عنده مثله تفاخر به على الناس. في هذه الأيام لا يُعتبر في معظم مناطق الهند ثريًا إلا من يملك مليونا أو مليونا ونصف المليون من الروبيات، ولكنه لا يُعتبر في "مومباي" ثريا، إنما الثري فيها من يملك عشرة ملايين مثلا. أما إنجلترا فليس الثري هنالك من يملك ١٠ ملايين روبية، إنما الثري عندهم من يملك ١٠٠ مليون أو ١٥٠ مليون. أما أمريكا فلن يُعتبر هذا ثريا هنالك، بل الثري عند الأمريكان مَن دَخْله السنوي ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ مليون من الروبيات. فمستوى الثراء قد ارتفع كثيرا في هذا الزمن، لكن في زمن نزول القرآن لو اجتمع عند أحد العرب خمسة آلاف روبية لَتفاخر بماله، ولذلك أقول إن التنوين في قوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ قد يكون للتعظيم.. أي أن هذا الإنسان أو قومه، يعظمون ما جمعه من مال معتبرين إياه ثروة كبيرة.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ يعني أنه جمع مالاً قليلا، أو جمع مالاً حرامًا رديئًا، أو جمع مالاً كثيرا.

أما قوله تعالى ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ فينطبق عليه كل ما ذكرنا من معانٍ لِفعل ﴿عَدَّدَ﴾ عند شرح الكلمات. فأما بالنسبة للعدّ بمعنى الإحصاء: فمِن عادة البخلاء أنهم يجمعون المال، ثم لا يبرحون يعدّدونه ليروا كم صار. إن البخيل لا يفكر أنه لو استثمر ماله في مشروعٍ نافع، أو أنفقه في المشاريع الخيرية الأخرى التي تنفع بني جنسه، لكان خيرًا له ولكثير من الناس. ثم من العيب الشائع بين البخلاء أنهم يجمعون الأموال ولا ينفقونها لسدّ حاجاتهم الشخصية، فضلاً عن أن ينفقوا لسد حاجات الأمة. وأما بالنسبة لعدّ المال بمعنى جعله عُدّة للدهر: فمن أكبر علامات البخيل أنه إذا سئل عن سبب عدم الإنفاق قال: لقد احتفظت به ليوم أحتاج إليه بشدة، فكيف أُنفقه قبل ذلك؟ فينفد عمره ولا يأتي ذلك اليوم الموعود، ويظل ماله مخزونًا في الخزينة حتى يموت، فيُبدّد أولاده بعده كل ما اختزنه في شرب الخمر ولعب القمار ومراقصة البغايا. إن البخيل لا ينفقه حتى في مرضه أو مرض زوجته أو ابنه أو أخيه، وإذا سئل لماذا لا تعالجهم، قال: لقد ادّخرته ليوم صعب، فيقضي حياته كلها عاريًا جائعا مريضا في بؤس وفقر، كما يعاني أهله وأولاده، ولكن لا يأتي يومه الذي ادخر ماله للإنفاق فيه.

أما بالنسبة للعدّ بمعنى عدّ المناقب: فالمراد أنه بدلاً من أن ينفق ماله وينفع الأمة باستثماره، يعدّد محاسن بخله ويقول للآخرين: عليكم أن تحتفظوا بأموالكم دائما، لأن في ذلك كذا وكذا من المنافع. مما يعني أنه لا يندم على فعله، بل يتفاخر بكونه بخيلا، ويقول للآخرين: إن الإنسان يحتاج إلى ماله كثيرا في حياته، فعليه أن يحتفظ به ولا ينفقه لسد حاجاته ولا لسد حاجات أمته.

## يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾

**التفسير**: لقد بين الله تعالى هنا سبب بخل هذا الإنسان بماله، فقال ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.. أي أنه يظن أن ماله يكون سببًا لبقائه، بمعنى أن أكبر سبب بخل الأثرياء هو ظنهم أن مالهم المدّخر يتسبب في عز عائلتهم، فيعانون في حياتهم ولا ينفقون مالهم عند الحاجة. فالبخيل العادي يفكر أن عليه أن يجمع هذا المال لينفقه على تزويج ابنه أو

بناء بيته بعد عشر سنوات مثلا، أما البخيل الكبير فلا يفكر هكذا، وإنما يدخر هو وأولاده وحفدته حتى تشتهر أسرته بالثراء، ظنًا منه أن هذا سيخلّد اسمه ويزيد عائلته عزًّا. مع أن الواقع أنه لو أمعن النظر لوجد فيما حوله أمثلة كثيرة لأناس جمعوا المال وهم يقاسون الجوع والعطش والعري، و لم ينفقوه لتجتمع عندهم ثروة كبيرة، ولكنهم لما ماتوا بدّد أولادهم كل ما جمعوه في الانغماس في الملذات.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود ﷺ طبيبًا ملَكيًا عند المهراجا لجامون، وكانت له صلات مع الأثرياء هنالك، وكان يحكي لنا قصةً بأن أحدًا منهم مات، فأخبرني البعض بعد أيام أن ابنه أخذ يهدر ثروته بطريق عجيب. فقلت: كيف؟ قال: ذات يوم كان يمرّ بالسوق أمام دكان بائع قماش وهو يشقّ قطعة من القماش من أجل أحد الزبائن، فأُعجبَ بصوت شق القماش، فبدأ يشتري أكوامًا من الأقمشة ويأمر خدمه بشقّها أمامه من الصباح حتى المساء ليستمتع بهذا الصوت. ويتابع الخليفة الأول ﷺ قائلا: فدعوتُ ابن الثري هذا ونصحته أن لا يضيع مال أبيه بهذا الطريق. فقال: حضرة الشيخ، لا أجد في أي شيء المتعةَ التي أجدها في شقّ القماش.

لا شك أن عمله هذا كان ضربًا من الخبل، فكانت النتيجة أن دمر كل ثروة أبيه. لا ندري كم تكبّد من المشاق في جمع هذا المال، ولكن الله تعالى أفسد عقل ابنه، فدمّر ثروته تدميرا. وكذلك هناك كثير من البخلاء الذين يدخرون المال ولا يذوقون طيلة حياتهم طعامًا لذيذًا، ولكن أولادهم يدمرون ثروتهم في لعب القمار وما شابهَ ذلك. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.. أي أنه يظن أن ماله سيكتب له البقاء، مع أن المال لا يكتب البقاء للإنسان، إنما هو فضل الله تعالى الذي يكتب البقاء. يقول داود عليه السلام: لم أرَ أحدًا من الصلحاء تعرّضَ أولاده لسبعة أجيال للجوع والفاقة*، مع أننا نعرف حالات كثيرة لأصحاب المليارات الذين عاش

* نص ما ورد في المزامير هو كالآتي: "كُنْتُ فَتىً وَقَدْ شِخْتُ، وَلَمْ أَرَ صِدِّيقًا تُخُلِّيَ عَنْهُ، وَلاَ ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزًا." (اَلْمَزَامِيرُ ٣٧ : ٢٥)

أولادهم بعدهم جوعًا وفاقة! فالحق أن وصال المرء بربه هو ما يكتب له الخلود. إن الذي ينفق ماله في سبيل الله تعالى دونما تردّد هو الذي يُخلده ماله. قال النبي ﷺ مرة لصحابته: أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَال وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ (البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له). فهذا الحديث أيضا يبين المعنى نفسه، أعني أن المال النافع ما ينفقه المرء في سبيل الله تعالى، أما ما سواه من ماله فلا ينفعه بل ينفع الآخرين. فالذي لا يؤمن بيوم القيامة، ولا بالجنة ولا بالنار، ولا بأي أجر على إنفاق المال في سبيل الله تعالى، فهو يدرك على الأقل أن إنفاق المرء ماله على حاجات الأمة يُكسبه الصيت وثناء الناس، حيث يقولون إنه يخدم القوم ويشفق على الفقراء ويتفقد أحوال اليتامى والمساكين والأرامل. أفليس غريبًا أن الناس من ناحية يعترفون أن مالهم أحبُ إليهم من مال الآخرين، ومن ناحية أخرى إن ما يفعلونه عمليًا هو أنهم لا يحبون المال الذي سيأخذونه معهم إلى الآخرة، أو الذي يُكسبهم الصيت بين القوم. إنهم يحبون المال الذي ينفع الآخرين بعدهم؛ إذ يجمعونه ولا ينفقونه في سبيل الدين أو سبيل الأمة. الحق أن المال الذي ينفقه الإنسان في سبيل الله تعالى هو الذي يخلّده، أما المال الذي جمعه فلا يخلّده أبدا.

كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٥﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٦﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٨﴾

**شرح الكلمات:**

**الحُطَمة:** حطَمه حَطْمًا: كسَره. والحُطَمة: النارُ الشديدة (المنجد). فمعنى الحطمة: الكاسرة، أو النار الشديدة الحرّ.

**التفسير**: لقد حذر الله هنا الكافرين من مصيرهم، فقال إنهم يؤذون المسلمين ويضربونهم في نشوة قوتهم، كما يظنون أنفسهم أهل عز ومجد مغرورين بأموالهم فيزدرون المسلمين، أو إذا أنفق المسلمون قالوا إنما يريد هؤلاء به صيتًا، وإذا صلّوا أو تصدّقوا قالوا إنما يصلي هؤلاء ويتصدقون رياءً. فما من خير يفعله المسلمون إلا ويطعن فيهم الكافرون بسببه. والواقع أن الكافرين ليسوا في وضعٍ يُحسَدون عليه، ولذلك قال الله تعالى عنهم ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾.. أي يجب ألا يظن الكافرون أن المسلمين عرضة للدمار وأنهم في مأمن من الهلاك، كلا، بل سيُلقى الكافرون في نار ملتهبة.

ما هي هذه النار الملتهبة؟ قال المفسرون كعادتهم إنها نار القيامة، أي أنهم سيُقذَفون في نار جهنم. (جامع البيان)

لكني أرى غير ذلك، إذ يتضح من القرآن الكريم أن الله تعالى قد قدر للبعض في الدنيا عذابا شديدا جدا يمكن أن يسمى عذاب الجحيم لشدته، فالحطمة هنا تعني عذاب النار في الدنيا.

أما لو فسّرنا الحطمة بمعنى الحاطمة والكاسرة، فالمراد أن شوكتهم ستُكسر كليّة.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾، فاعلم أنه إذا وردت في القرآن الكريم كلمة ذات مدلولات عديدة فهي تُفسَّر عادة بكل مفاهيمها اللغوية، ولكن إذا أراد الله تعالى تحديد معنى كلمة قال دائما ﴿ما أدراك﴾.. أي أنها تحمل مفاهيم كثيرة، لكننا نخبرك الآن ما هو المعنى الذي نعنيه هنا.

ثم يقول الله تعالى ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾.. أي أن المراد من الحُطمة هنا نارُ الله التي تُوقَد إيقادًا وتُلهَب إلهابًا.

والنار نوعان: مادية ومعنوية. فالمادية ما توقَد بالأخشاب مثلاً، حيث يجمعون الخشب ويُشعِلون فيه النار بعود ثقاب وغيره، أما المعنوية فهي النار التي يوقدها الله تعالى. ثم إن النار التي يوقدها الله تعالى نوعان: أولهما نار الله التي تكون في الآخرة في شكل الجحيم، وثانيهما النار التي يوقدها الله في هذه الدنيا، وتسمى عذابا.

فـ﴿نارُ اللهِ﴾ هنا يعني العذاب الذي قدره الله تعالى في الدنيا. إن النار التي تلتهب بالخشب تنطفئ بالماء، كما حصل مع إبراهيم عليه السلام، حيث أوقد الكافرون النار لحرقه، فأنزل الله تعالى المطر الذي أخمدها تمامًا، فقرروا حرقه في فرصة أخرى، وبما أن ثورة الكفر تكون مؤقتة، فقال بعض قومه: إنه من أقاربنا، فما الفائدة من حرقه؟ فلم يحاولوا حرقه بعد ذلك. فثبت أن النار التي يوقدها العباد يمكن أن تنطفئ، كما أخرج الله تعالى إبراهيم سليمًا من النار التي أوقدها العباد، لكن النار التي يوقدها الله تعالى لا يقدر أحد على إخراج غيره منها، لأنها تشتعل في القلب أحيانًا، فيسعى المعذَّب أن يخرج منها، ولكن بدون جدوى، حيث عرّف الله تعالى هذه النار هنا بقوله ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾.. أي أن النار التي نوقدها ستهاجم القلوب، إنها ليست نار الخشب التي تنطفئ بالماء، بل هي نار القلب التي يحرقهم لهيبها كل حين. إنهم سيحترقون حسدًا وكمدًا برؤية ازدهار المسلمين. ستقضّ الحسرة مضاجعهم، ولكنهم لن يدروا ما السبيل للخروج منها.

عندما خرج أبو جهل بجيشه إلى ميدان بدر لم يكن يتصور أنه سيخوض حربًا مع المسلمين، بل كان المسلمون أنفسهم يظنون أنهم سيواجهون قافلة الكافرين التجارية، ولذلك لم يشترك في هذه المعركة كثير من الصحابة الفدائيين، ولكن الله بحكمته الكاملة قد جعل جيشَ الكافرين والمسلمين يلتقون وجهًا لوجه، فأخبر النبيُّ ﷺ صحابته أن الله تعالى يريد أن نقاتل الكافرين. يقول الصحابي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كنتُ أتمنى منذ فترة أن تقع الحرب فأنتقم من الكافرين لاضطهادهم للمسلمين، ولكن المحارب لا يقدر على القتال جيدا إلا إذا كانت ميمنته وميسرته محميّتين لكيلا يهاجَم مِن خلفه. ولما اصطفّ الفريقان نظرتُ إلى يميني وشمالي فهبط قلبي إذ كان على يميني وشمالي صبيّانِ أنصاريان عمرهما قرابة ١٥ سنة، فقلت في حيرة: كيف أحقق أمنيّتي القلبية التي أرّبيها منذ زمان؟ ليتني كان معي محاربان محنكان لكي أظهر مهاراتي القتالية، فماذا عسى أن يفعل هذان الصبيان؟ وبينما أنا في ذلك إذ غمزني الذي على يميني وقال: يا عمّ قرِّبْ إليّ أذنك. ثم همس في أذني: يا عم، مَن هو أبو جهل الذي كان يؤذي النبي ﷺ، فإني أريد أن أنتقم له منه؟

فأخذتني الحيرة من سؤاله، وقلت ما هذا السؤال الغريب يوجّهه إليّ هذا الصبي الصغير؟ وقبل أن أجيبه غمزني الذي على يساري قائلا: يا عَمِّ قرِّبْ إليّ أذنك، فانحنيت، فهمس: مَن هو أبو جهل الذي كان يؤذي النبي ﷺ، فإني أريد أن أنتقم له منه؟ وقد همس كل واحد منهما في أذني مخافة أن يسمعه صاحبه فيشترك معه في شرف قتل أبي جهل. يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ورغم أني كنتُ مقاتلاً محنَّكًا إلا أنني لم يخطر ببالي أني قادر على قتله. فاندهشت من قولهما، وأشرت بيدي وقلت: ذلك أبو جهل قائمًا بين الجنود لابسًا خوذة ودرعًا يغطي جسده كله، ويحرسه من أمامه جنديان بسيفيهما، أحدهما ابنه عكرمة، والآخر بطل آخر. وما إن أنزلتُ يدي بعد الإشارة حتى انقضّ الصبيّان انقضاضَ البازي على فريسته وأخذا يركضان بسرعة نحوه، حتى وصلا إليه في قلب الأعداء وهم ينظرون، ولم يستطيعوا إيقافهما، فضرب أحدُ الحارسين أحدَ الصبيين فقطع ساعده، فلم يبال بيده المقطوعة بل وضعها تحت قدمه وفصلها من جسده، ثم انقضّ الاثنان على أبي جهل وأصاباه بجراح بالغة، فسقط على الأرض، ولكنه لم يمت إلا بعد فترة.

باختصار، لم تكن المعركة قد بدأتْ بعد حتى وقع أبو جهل على الأرض مضرَّجًا بدمائه نتيجة هجوم هذين الصقرين الصغيرين من الأنصار الذين كان أهل مكة يحتقرونهم بشدة (البخاري، كتاب الجهاد والسير). ذلك أننا كما نجد بعض المزارعين عندنا يحتقرون بسبب جهالتهم عائلةَ "الأرائين" الذين يزرعون الخضار ويبيعونها، كذلك كان أهل مكة يزدرون أهلَ المدينة الذين كانت مهنتهم الزراعة وبيع الخضار والثمار، قائلين: ما لهؤلاء الأكّارين وللحرب! ولكن انظروا إلى آيات الله، فقد قُتل أبو جهل بيد صبيين من المدينة.

ويقول الصحابي عبد الله بن مسعود: وجدتُ بعد انتهاء المعركة أبا جهل يئنّ من شدة جروحه، فسألته عن حاله فقال: لست حزينًا لموتي فكل محارب عرضة للموت آجلاً أو عاجلاً، ولكن يحزنني أن صبيين من المدينة صرعاني. فاعمَلْ بي معروفًا واقطَعْ رقبتي بسيفك لتنتهي معاناتي، ولكن اقطعها طويلة إذ هكذا تقطع

رقاب القادة. يقول ابن مسعود ﷺ فقلت له: لن أحقّق لك حسرتك هذه، ثم قطعتها قريبًا من ذقنه. (السيرة الحلبية، الجزء الثاني: غزوة بدر الكبرى).

فيمكنك أن تقدّر شدة النار التي كان يحترق بها أبو جهل يوم بدر. لقد جاء إلى ساحة القتال بنيّة قتل النبي ﷺ، ولكنه نفسه قُتِلَ بيد صبيين أنصاريين، مع أن اثنين من المحاربين المحنكين -أحدهما ابنه- كانا يحرسانه، وكان لابسًا درعًا وخوذة، ولكن لم تنفعه حيلة فمات بحسرة. من ذا الذي يمكنه أن يقدّر شدة النار التي كانت مضطرمة في قلبه، وشدة الحسرة التي مات بها؟

وفي صلح الحديبية بعث الكافرون زعيمًا لهم للتفاوض مع النبي ﷺ، وبينما هو يتكلم معه ﷺ في كبرياء وغطرسة، إذ سُمع صوت السلاسل، فرأى الناس أن ابنه قادم نحو النبي ﷺ وهو يرسف في أصفاده، ثم ألقى نفسه عند قدميه قائلا: لقد آمنت بك يا رسول الله، لكن أبي ألقاني في البيت مصفدًا بالسلاسل كي لا أهرب وألتحق بك في المدينة، وقد جاء إلى هنا اليوم لعقد الصلح معك، فوجدتُ فرصة للهروب فجئتك في هذا الحال. (البخاري، كتاب الشروط)

كم من حسرات أحرقتْ قلب ذلك الزعيم الكافر في تلك المناسبة! كم تعذّبَ عند سماع كلام ابنه وهو يلقي بنفسه عند قدم الرسول ﷺ قائلا: يا رسول الله قد آمنت بك.

باختصار، قد هيأ الله من الأسباب ما جعل قلوب الكافرين تحترق دائمًا وتصبح رمادا، وكانوا لا يدرون كيف يطفئون هذه النار التي تطلع على أفئدتهم. لم تكن هناك أسرة عريقة إلا ودخل أفراد منها في الإسلام. فكان الزبير وطلحة وعمر وعثمان وعثمان بن مظعون -رضي الله عنهم- من الأسر العريقة من مكة، كما كان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد من كبار أسرها. كان العاص عدوًا للإسلام، ولكن ابنه أسلم. كان الوليد شديد المعارضة للإسلام ولكن ابنه خالد أسلم. فهناك آلاف عادوا الإسلام عداء شديدًا، ولكن أولادهم ألقوا بأنفسهم عند قدم الرسول ﷺ، وحاربوا آباءهم وأقاربهم الكافرين بالسيوف في المعارك. فقد ورد أن أبا بكر ﷺ كان يتناول الطعام مع النبي ﷺ ذات مرة، وكان هناك ابنه عبد

الرحمن الذي كان أكبر أولاده، وقد أسلم فيما بعد، وكان قد خرج لمحاربة المسلمين يوم بدر أو أحد، فقال لأبيه أثناء الحديث: يا أبتِ، لقد كنتُ ذات مرة مختفيًا وراء حجر أثناء القتال، وكنتُ قادرا على قتلك، ولكني تركتُك لأنك أبي، فردّ عليه أبو بكر: لقد نجوتَ لأن الله أراد لك الإيمان، والله لو رأيتُك خلال المعركة لقتلتُك. (الروض الأُنف ج ٣ ص ٨٩-٩٠)

لا شك أن هذا كان عذابًا أليمًا للكافرين، إذ كانوا يرون أبناءهم وإخوانهم وأقاربهم الآخرين يدخلون في الدِّين الذي خرجوا للقضاء عليه. كم كانت حسرتهم كبيرة عندها، إذ كان بعضهم يرى زوجته تدخل في الإسلام وأباه يؤمن وابنه يُسلِم وقريبه أو صديقه يصدّق، مما يعني أنهم بينما كانوا يُزهِقون أرواحهم للقضاء على الإسلام، كان الله تعالى يُخرِج منهم الواحد تلو الآخر إلى حظيرة الدين الحنيف. لا جرم أنه كان عذابا أليما. لقد دخل في الدين الذي هبّوا للقضاء عليه وسحقه أقربُ أقاربهم وأصدقائهم، وليس هذا فحسب بل حملوا السيوف على آبائهم وإخوانهم الكافرين حاملين راية الإسلام في أيديهم، ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾.. أي أنه تعالى سوف يُلهِب في قلوب الكافرين نارًا شديدة الحر. عندما كان الناس يرون العاص بن وائل أو الوليد يتبختر في ثوبه ويجرّه على الأرض فكانوا يهابونه ويقولون ما أعظمَ هذا الرجلَ! بينما كانت قلوب هؤلاء العِظام تحترق حسرةً وكمدًا حين يرون أولادهم وإخوانهم وأقاربهم يدخلون في الإسلام، وهم لا يستطيعون فعل شيء إزاء ذلك.

## إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٩ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝١٠

**شرح الكلمات:**

**مُؤْصَدَةٌ:** المؤصَد: المطبَق والمغلَق. (الأقرب)

**عَمَدٍ:** جمعُ عمودٍ. (الأقرب)

**التفسير**: لقد بين الله تعالى هنا شدة النار التي تُلهِب قلوب الكافرين، فقال لا تظنوها نارا عادية، بل هي شديدة كشدة النار التي توقد في الكير لكونها مغلقة من كل الجوانب، فلا تفقد من حرارتها شيئا.

ومثالُ النار المؤصدة على كفار مكة ذلك القرار الذي اتخذوه بعد معركة بدر بصدد كبار زعمائهم الذين قُتلوا هنالك، فقالوا فيما بينهم أن لا يبكي أحد قتلاه ولا يقيم مأتمًا عليهم كي لا تُلطّخ عزّتهم بالوحل. لقد كان قرارا قاسيا جدًا، ولكن القوم احترموه، فلم يبك أحد على قتلاه كابتًا في قلبه نار الهم والحزن. كانت عيونهم تريد أن تنهمر، وكانت ألسنتهم تريد أن تصرخ وتثير ضجة من شدة البكاء، ولكنهم ما كانوا ليفعلوا شيئا، لأن القوم قد قرروا عدم البكاء على قتلى بدر وأن يَكُمَّ الجميعُ أفواههم ممسكين دموعهم خوفًا من شماتة المسلمين. لقد استمر هذا الوضع فترة طويلة، فلم يُسمح للنساء أن يبكين أزواجهن، ولا للأمهات أن يبكين أبناءهن، ولا للإخوان أن يبكوا إخوانهم، ولا للأصدقاء أن يبكوا على أصدقائهم. كانت صدورهم تلتهب بنار الحزن المضطرمة، ولكن ما كان لهم أن يجرؤوا على خرق قرار القوم. وذات يوم ماتت ناقةُ مسافر، فأخذ يبكيها بالشعر في شوارع مكة، فسمعه شيخ عجوز قد قُتل اثنان من أولاده في بدر، فخرج من بيته وقال بصوت عالٍ: وا أسفاه! يُسمح لهذا أن يبكي ناقته، ولا يُسمَح لي أن أبكي ابنيّ اللذين قُتلا في بدر؟ فما لبث الجميع أن خرجوا من بيوتهم، وأخذوا في البكاء والصراخ قائلين: لقد حرقتنا نار الحزن وحولتنا رمادًا ولا نقدر على المزيد من الصبر. فاجتمعوا في ميادين مكة وأسواقها وأخذوا يبكون ويندبون حتى صارت مكة كلها مأتما. (السيرة لابن هشام، غزوة بدر)

هذا ما أشار الله تعالى إليه بقوله ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾.. أي أن هذه النار سوف تضطرم في قلوبهم اضطرامًا وتحيطهم من كل طرف، ويصل لهيبها من أخمص أقدامهم إلى قمة رؤوسهم وتحوِّلهم رمادًا.

أما قوله تعالى ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ فهو حال لضمير الغائب في ﴿عليهم﴾، والمراد أن تلك النار توقد على الكافرين وهم موثَقون في عمد ممددة، شأن الشخص المربوط جسمه بعمود فلا يقدر على الحراك رغم المحاولة، فإننا سوف نعذب هؤلاء الكافرين عذابًا لن يجدوا منه مهربا رغم كل محاولاتهم. وقد تحققت هذه النبوءة بدخول أولادهم وإخوانهم وأقاربهم وأصدقائهم في الإسلام أمام أعينهم. لو أسلم قوم آخرون لما تأذوا كثيرًا، ولكنهم لما رأوا أفلاذ أكبادهم يدخلون في دين محمد، وينذرون أنفسهم لخدمة الإسلام، فأصبحوا كالذين شُدّ وثاقهم بالأعمدة العالية فلا يستطيعون الحراك فضلاً عن الهروب.

وقد وصف الله تعالى الأعمدة بكونها ممدّدة أي عاليةً لأنهم كانوا إذا أرادوا رجم أحد أو حرقه أوثقوه حتى ظهره بعمود خشبي، فالأعمدة العالية إشارةٌ إلى أن الجزء العلوي من أبدانهم يكون موثقا.

وقد يكون قوله تعالى ﴿عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ وصفًا لِـــ ﴿مُؤْصَدة﴾، وبما أن ﴿ممدَّدة﴾ تعني مطوَّلة، وعليه فالمراد من الآية أن تلك النار ستُضرَم في أعمدة كبيرة طويلة، أي أن الموقد الذي تُضرَم فيه النار يكون عاليا بين جدران مرتفعة. والقاعدة أنه كلما كانت الكير عالية كانت النار أشدَ حرارة. فقوله تعالى ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ إشارةٌ إلى شدة النار أولاً، وإلى قلة حيلة الكفار ثانيًا، فكأنما يكونون موثقين بأعمدة عالية، سيحاولون كثيرا لينجوا منها، ولكن لن يجدوا منها مهربًا.

هكذا كانت حالة الكافرين في النهاية، فما دام أولادهم قد آمنوا بالرسول ﷺ، فما كان هنالك من يستمع لهم؟ إذ لو قالوا لهم: ارجعوا إلينا وإلى دين آبائكم فما كانوا ليستجيوا لهم، لأن القضية قضية الإيمان، لا دخل فيها لأب أو أم. فما كان هنالك من يطيعهم؟

باختصار، فقوله تعالى ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ يمكن أن يفسر بمفهومين: أحدهما أنه ستُعَدّ لتعذيبهم النار في كير عالية، وأيضا أنهم لا يملكون حيلة ولا يجدون مهربا، إذ يعذَّبون وكأنهم موثقون من أخمص القدم إلى قمة الرأس، فلن يستطيعوا فعل شيء؟